

الثورة في الولاية السادسة

من خلال كتابات "محفوظ قداش".

~~~~~ د. محمد قناش \*

مقدمة: منذ مطلع القرن التاسع عشر ركزت فرنسا الاستعمارية اهتمامها المباشر على احتلال الجزائر، فأسندت المهام إلى كبار ساستها "جول دي بولينياك" رئيس دبلوماسيتها الذي أثار في مؤتمر فيينا عام 1815م مشكل القرصنة ورسالة الله التبشير في حوض المتوسط وعموما والجزائر بالخصوص، وبعد الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830م، بدأت الإدارة الاستعمارية تفكر في ضم الجنوب الكبير لمشروعها الإمبراطوري الفرنسي. وبعد سنة 1848م تم إدراج الصحراء الجزائرية في مشروع التوسع الاستعماري الفرنسي باتجاه الجنوب، في إطار ما يعرف بسياسة الاحتلال الشامل. وعلى إثر ذلك، سقطت بسكرة سنة 1849م والأغواط سنة 1852م في يد القبضة الاستعمارية، وكان ذلك بداية التوغل الفرنسي نحو أراضي أقاليم الجنوب. ولكن سرعان ما اصطدم الغزاة الجدد بسبيل من المقاومات الشعبية، امتدت جغرافيتها من تخوم الأطلس الصحراوي إلى حدود أقاصي الهوقار طوال ربع قرن من التحدي والمواجهة لإفشال مشروع جول فيري الإمبراطوري الفرنسي.

لما انطلقت الثورة التحريرية المباركة في الفاتح من نوفمبر 1954م تفاعل معها أهالي الصحراء، ولتوا طواعية نداء الكفاح المسلح، وسارعوا إلى تحرير الوطن من المستعمر الغاشم. ازدادت أهمية الجنوب بالتحديد في العمل الجهادي يوم 20 أوت 1956م ضمن قرارات مؤتمر الصومام الذي صادق في بيانه الختامي على اعتبار الصحراء الولاية السادسة للثورة الجزائرية المجيدة.

والمؤرخ الجزائري محفوظ قداش يشير في كتاباته إلى الدور البطولي والأداء الجهادي الذي قام به أهل الجنوب في دعم الثورة ونصرتها في كتابه بعنوان "حكايات من جمر" (récits de feu) بصور لنا المؤرخ تضحيات المجتمع الصحراوي وبطولاته في المعارك، والمواجهات التي خاضها بشجاعة في

\* استاذ محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - المركز الجمعي بلعاج بوشعب - عين توشنت.

مقاتلة المستعمر ومحاربه. في هذا المقام، سنحاول استعراض تلك المحطات ودورها في بسط شمولية الثورة بجنوبنا الكبير، وموقع الولاية السادسة من عمليات الكفاح الوطني المسلح بالإضافة إلى إسهامات محفوظ قداش في بعث المدرسة التاريخية وتأصيل هويتها.

1- خصوصيات الإقليم الصحراوي الجزائري: ينفرد جنوبنا الكبير عن بقية أقاليم الجزائر بأهميته الجغرافية ومكانته الاقتصادية وكنوزه الحضارية إذ تشكل الصحراء روح هذا الإقليم ومحوره الحيوي. كانت الصحراء على مدى التاريخ جسرا للتجارة القارية والعالمية وممرا للشعوب الإفريقية والأوربية. أهلت امتيازات الجنوب الجزائر لتكون الحلقة الواصلة بين أقطار حوض المتوسط شمالا وبلدان الساحل الإفريقي جنوبا.

الصحراء الجزائرية جزء لا يتجزأ من الصحراء الإفريقية الكبرى تغطي مساحتها القطر الجزائري بمليوني متر مربع، تضاريسها بسيطة ومتنوعة، من أهمها كتلة الهوقار وهضبة تادماييت والحمادات والعرقين الشرقي والغربي الكبيرين. وتضاف إلى تلك المظاهر الطبيعية الأودية والشعاب التي كانت بؤر حيوية في انطلاق المعارك وحصون طبيعية في مواجهة العدو أثناء حرب التحرير الجزائرية. في هذا الإطار كتب محفوظ قداش واصفا دور الجغرافية الصحراوية في مسيرة الكفاح المسلح، منوها بأهمية تضاريس الصحراء وتنوع سطحها وطبيعتها في إحدى مواقع غرداية قائلا: "تميز شبكة متليبي الواقعة بإقليم الشعانة بسطحها الجبلي ذي الطابع الصخري، أبدعت في صناعتها أربعة أودية متوازية، تكسو سفوح تلالها نباتات تمتد إلى ضفة الوادي، وفي جنوبها تظهر كتبان رملية مطرزة بياقات من النبات الميال إلى لون الحلفاء..."<sup>(1)</sup>.

من مميزات الإقليم الصحراوي اتساع الأبعاد، وندرة النبات وشح المياه، وقسوة المناخ وشدة الرياح، استعصى الأمر على المستعمر الفرنسي السيطرة على الصحراء خلال السنوات الأولى من الغزو، وتأخر المد الاستعماري باتجاه الجنوب حتى 1852م، وقد يعود هذا التأخر إلى صعوبة جغرافية الإقليم التي كسرت التوسع المباشر والاستيطان المبكر للمنطقة. في المقابل توجد مناطق واسعة في الصحراء غير ملائمة للحياة.

من أشهر هذه المناطق وأشدّها قسوة أراضي "تنزروفت" التي تمتد في غرب الصحراء على عشرات الآلاف من الكيلومترات، ظلت منطقة مستعصية مجهولة لدى للكشفيين الأوربيين حتى سنة

1936م<sup>(2)</sup>. ولكن صمود الإنسان الجزائري وتحديه أحيانا للبيئة المدارية في الصحراء القاسية، وقوت له القدرة على التكيف والتفاعل مع هذا المحيط الطبيعي القاهر، هذا التعايش مع ظروف الصحراء متأصل في ماضي الإنسان الجزائري منذ غابر الزمن؛ فالرياح القوية تدفع أمامها تلال الرمل بسهولة، فتتمحو معالم الطرق وتقلع جذوع النخل، وتغطي بساتين النخيل وتدفن القرى، وبالرغم من ذلك يعمل السوفيون في منطقة الوادي بصبر وبلون تون في مواسم الرياح لرفع أكداس الرمال التي قد تغطي النخلة حتى رأسها في بساتين النخيل.<sup>(3)</sup>

ومما لاشك فيه أن رجال الثورة التحريرية وعلى رأسهم قادة جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني، تمكنوا كما سنرى في استثمار طبيعة الصحراء، بل طبيعة الوطن وجغرافيته من الأوراس إلى أتاكور في قلب الهوقار، في مباغنة العدو ودحر قواته في محطّات شتى وفي اشتباكات فاصلة. لقد كانت الصحراء أحيانا بتضاريسها الوعرة عامل طرد للإنسان، أخفق الاحتلال في بسط سيطرته المبكرة على كتابها وعروقها، وعلى استغلال أهلها ونخلها.

2- الصحراء حاضنة المقاومات الشعبية: سعى المستعمر الفرنسي إلى اتباع سياسة الاستيلاء والانصهار في آن واحد، أي ضمّ الأرض والفرد، وانطلاقا من سنة 1878م تحولت سياسة التبشير في الجزائر إلى رسالة حضارية وإنسانية في نظر الكنيسة وسياسة الإدارة العامة، ومن أجل ذلك بدأت جهود المبشرين تعمل على الأرض حيث حاولت فرنسا دمج الصحراء عن طريق حملات التنصير بهدف تسهيل المهمة العاجلة على الإقليم، وبالتالي الوصول إلى ربط الأطلس التلي بالأطلس الصحراوي، وهذه العملية تمكن الاحتلال من طمس الهوية وواد روح المقاومة.

وانطلقت حركة "لافيجري" في الشمال وحركة "دو فوكو" في الجنوب، غير أن المجتمع في جنوبنا الكبير غيور على وطنه وعلى هويته، مجتمع محافظ حام للثراث، راع للأصالة، ورث هذه القيم منذ غابر العصور لما تحدّى أسلافه وأترابه قسوة الطبيعة وهول رياحها العاتية.

وهناك ما يشيد بنخسال الصحراء وأهلها على أساس أنها كانت دوما جبهة متماسكة وحصنا منيعا ضدّ المبشرين والغزاة الفرنسيين، وفي هذا الشأن يقول إسماعيل العربي: "ونحن نعرف أن الصحراء كانت تمثل عبر التاريخ الخط الخلفي في الدفاع عن الإسلام والقيم الأدبية الإفريقية ضدّ طلائع الاستعمار"<sup>(4)</sup>.

ولدت هذه المثل والبلد في أهل الصحراء المتمسك بالأرض والذود على السيادة، قيم كانت الحرك الفعلي للمقاومات الشعبية وحرب التحرير الجزائرية، ولا ننسى الدور الريادي للحركة الصوفية والزوايا التي وقفت بحزم في وجه المبشرين والغزاة، وكانت في نهاية الأمر منبع المقاومات الشعبية في الأغواط وبشار وغرداية ورقلة وغيرها، يبرز مارسيل سيميان هذا الأمر فيقول: "غالبا ما تحولت تلك للمؤسسات الدينية إلى معقل للثورة ضدّ الأجنبي وضدّ الزومى المدنس لأرض الإسلام"<sup>(5)</sup>؛ فالظاهر للبيان أن الزاوية لم تعد فقط مركزا للتعليم القرآني بل باتت مبنيا للجهاد في ظلام أركانها مخططات الانتفاضات والثورات<sup>(6)</sup>، ومن أبرز المعارك معركة "مقارين" في الجنوب الشرقي نواحي ورقلة وواد سوف، وقعت يوم 30 نوفمبر 854، جندت لها فرنسا 250 نظاميا و2400 من الاحتياطيين.

وصلت تلك القوات إلى ثغرت أواخر نوفمبر 1854م<sup>(7)</sup>، وسجل تاريخ المعركة تضامن أهالي الصحراء في طرد العدو والتصدي للتوسع الاستعماري في الجنوب الشرقي، وتجسد هذا التضامن عندما طلب زعيم المقاومة الشيخ سليمان يد المساعدة من أهالي واد سوف بغية تضيق الخناق على الغزاة، وتذكر الكتابات التاريخية وصول المساعدات قادمة من واد سوف بقيادة الشريف محمد بن عبد الله إلى مدينة تفرت يوم 27 نوفمبر؛ فأصبحت قوات الشيخ سليمان أزيد من 400 فارسا و2000 من المشاة<sup>(8)</sup>، والتحم الجيشان في معركة ضارية يوم 29 نوفمبر، وظف فيها المستعمر خبرته في معركة الرعاشة، ولم ينج منها العدو إلا بعد قتال مرير وتحلّى عسير.

جاءت معركة "مقارين" سنة 1854م كرد فعل على مقاومة الرعاشة 1949م، وغزو الأغواط سنة 1852م، ليؤكد فيها أهل الصحراء رفضهم التام للاحتلال وإصرارهم المستميت على التحرر، وظلت الصحراء حاضنة للمقاومة في جنوبنا الكبير، واقفة في وجه التوسع، ثائرة على حملات التبشير، ويرجع ذلك كله إلى قوة الازع الديني لدى أهالي الإقليم وتشبهم بالأرض.

وصلت حركة التنصير أواخر القرن التاسع عشر إلى ورقلة والأغواط، إلا أن مجهودات المبشرين في هذه المناطق كانت فاشلة خاصة في مدينتي غرداية وأولاد سيدي الشيخ نظرا لتمسك السكان بدينهم الإسلامي، ورفضهم الالتحاق بالمدراس الدينية<sup>(9)</sup>.

3- كتابات محفوظ قداش عن الثورة الجزائرية في الولاية السادسة: الصحراء إقليم جغرافي تناغمت فيه قساوة الطبيعة مع إرادة الإنسان، كونها الحصن الذي انطلقت منه ثورات جنوبها الكبير؛ فالمقاومات الشعبية التي عرفها الأطلس الصحراوي فيما بين 1854 و1910م أتعبت الغزاة وعرقلت مخططات التوسع الفرنسي في المنطقة.

نتيجة لذلك تقول بعض التقارير الفرنسية أن الصحراء خشيتها الغازي الأوروبي وصعب عليه التوسع والتوغل في أعماقها، وقاوم الطوارق الغزاة بشدة فأخروا مشروع ضم الصحراء حتى بداية القرن العشرين حيث أخفقت المنطقة يوم 24 ديسمبر 1902 بأقاليم الجنوب<sup>(10)</sup>.

يعود تأسيس الولاية السادسة إلى قرار مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م، حيث تم إدراج إقليم الجنوب في خريطة الثورة التحريرية تحت قيادة الزعيم "سي الحواس"، وأوكلت مسؤولية الإشراف على الولايات الستة إلى قادة عسكريين محنكين من الضباط ذوي الكفاءة المهنية لجيش التحرير الوطني<sup>(11)</sup>، وفي هذا المجال حظيت الصحراء بقيادة سي الحواس وعلي ملاح وبن علي بودغن المعروف باسم العقيد لطفي. ويمتد الخط الجغرافي للولاية السادسة من مدن سور الغزلان وقصر البخاري شمالا، مروراً بمدینتی بوسعادة والجلقة مختزلاً سلسلة جبال أولاد نايل والأغواط ليصل إلى أقصى الجنوب<sup>(12)</sup>، وأدركت قيادة الثورة أهمية الصحراء كونها القاعدة الخلفية لولايات الأطلس التلي، وبخاصة أنها المنفذ الإستراتيجي في التمويل والتسلح والتخطيط العسكري لحرب التحرير الوطنية.

بعد محفوظ قداش من الأعلام الوطنية الجزائرية الرائدة في حقل التاريخ، يكتب باللغة الفرنسية، وله العديد من المؤلفات أهمها الأجزاء الثلاثة حول: الجزائر في العصور القديمة، الجزائر في العصور الوسطى، والجزائر في العصر الحديث.

والمؤرخ كتب ومقالات كثيرة ومتنوعة يصعب حصرها في صفحات، غير أن الكتاب الذي وضعناه محل الدراسة والاهتمام في هذا المجال هو باللغة الفرنسية، وعنوانه "حكايات من جمر" (récits de feu) من الحجم المتوسط، يقع في 342 صفحة، من مطبوعات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع سنة 1977م، يصور فيه الكاتب بأسلوبه التاريخي المزوج بالمشاعر الوطنية الفياضة

والعواطف الجياشة معارك حرب التحرير في بعض مواقع جنوبها الكبير من الجنوب الغربي: أفلو، بشار، غرداية، تيميمون إلى الجنوب الشرقي ورقلة تقرت وواد سوف.

سجل محفوظ قداش في مؤلفه هذا بطولات الجزائريين وتضحياتهم إبان الثورة التحريرية في كل ربيع الوطن، وذكر الإنجازات التي حققها رجال جيش التحرير عبر مسيرة الكفاح المسلح، كاشفاً في ذات الوقت أساليب التعذيب الاستعمارية.

أما بخصوص حرب التحرير في الولاية السادسة فقد قدم لنا محفوظ قداش مشاهد ميدانية عن ثورة نوفمبر في عمق الصحراء وكنياتها، واحتزنا لذلك ثلاثة محطات حاسمة هي: مهمة في منطقة الأغوار (mission dans les ghors)، معركة في الجنوب (bataille dans le sud)، معركة جبل الكفاح (la bataille du djebel el kifeh).

من بين بطولات جيش التحرير في الصحراء الجزائرية وقائع معركة الغور أو الأغوار<sup>(1)</sup> في ولاية غرداية، وبالأخص متبلي بمنطقة الشعانية ووديانها وشعابها، ويروي محفوظ قداش تفاصيلها نقلاً عن شهادة أحد الفاعلين في المعركة وهو المجاهد "دحمان رمضان" الذي كلف من طرف القيادة بالقيام بمهمة في "الأغوار"، وهذا وتصف موقعة الأغوار ثاني معركة بعد معركة "جبل فزان" التي تعد أول معارك ثورة نوفمبر التي وقعت في الصحراء<sup>(13)</sup>، والهدف الرئيسي من هذه العملية هو الاطلاع على تحركات العدو في قلب الصحراء، والعمل على شل عملياته وإفشال مخططاته.

بعد أن وصف جغرافية محيط وقوع المعركة، شرع المؤرخ في تقديم ظروف العملية ومجريات أحداثها، يقول: وقع الاشتباك في منخفض واد متبلي بالشعانية، وتشكلت المجموعة العسكرية من 24 رجلاً، قدمت من واد زرقون تحت قيادة الأخ "بوحوص" مسؤول الاتصالات بالولاية الخامسة، محملة بالمؤونة والأسلحة والأدوية والدخيرة أغلبها إيطالية الأصل قدمت من الحدود الليبية، بلغنا الأخ دحمان إبراهيم عن المستحلات بالمنطقة مشيراً إلى وصول قوات العدو ممثلة في إمدادات قادمة من غرداية والأغواط وورقلة بغرض تعزيز التواجد الفرنسي في متبلي<sup>(14)</sup>، وتشكلت فرقنا العسكرية من ثلاثة أشخاص: قائد الفرقة "سي بوجعة" من قدامى المحاربين بالهند الصينية مزود برشاش وقنبلتين، والعنصر الثاني "سي لخضر" مسبل كان محل شكوك من قبل العدو في

متبلي، والعنصر الثالث "دحمان إبراهيم" مسبل ومخبر في جيش التحرير<sup>(15)</sup>، وكلنا يحمل خضرا من نوع "بوسعادي".

ثم ينتقل المؤرخ محفوظ قداش إلى رسم ظروف المعركة قبل سرد تفاصيلها، فيقول: لما نزل الليل علينا أخبرنا سي بوجمة بمرور موكب بجوار بحري الواد، يتكوّن الموكب من 17 شاحنة، 14 منها محملة بالذخيرة والمؤونة وجنود المشاة، تؤمّن الموكب دبابة وسيارتين عسكريتين، وقبل لحظات من تنفيذ الهجوم على الشاحنات العسكرية، صرّح المجاهد "سي بوجمة" قائلا لنا: "سنهاجمهم"، ثم أرسلنا بقوله: "بعد تنفيذكم للعملية وإلقاء المتفجرات على العدو، التحقوا بأعالي المنطقة، فإذا سمعتم عواء الذئب<sup>(1)</sup> فزوا على الفور، وإذا سمعتم صياح الذئب التحقوا بي مباشرة"<sup>(16)</sup>، وكما خطط له، نفذ الهجوم ليلا في جوّ مغمور وبشكل مباغت تمت العملية بنجاح، استولى خلالها سي بوجمة على سلاح السائق من نوع بنقلية رقم 36 وعلب من المصبرات وسلاح رشاش، وسلم ذلك إلى "سي لخضر"، وبعد ذلك طاف "سي بوجمة" حول السيارة العسكرية؛ فوجد الضابط ميتا مستلقيا على الأرض؛ فأخذ منه على الفور مسدّسه؛ فغنمنا السلاح وبعض المواد الغذائية.

جاء ردّ فعل العدو بقوة على العملية ونحن في بحري الواد، حيث زفير الرصاص يقطع أعالي رؤوسنا، واشتدّت المعركة فسارعنا منبطحين على الأرض، وقذائف العدو تنهطل على ميدان المعركة. تبفّنا أن الشهادة بجوارنا، فنهضنا من الأرض واتجهنا نحو الطريق إلى متبلي، واتفقنا أن نموت في ساحة الشرف من أجل أن يحيي الوطن، بعد وصول إمدادات للمستعمر إلى الميدان اشتعلت المعركة واشتد القتال؛ فأصيب سي لخضر بجروح، وصرنا في منخفض الواد محاصرين بوابل من القذائف القادمة من الهضبتين<sup>(17)</sup>.

وفي لحظات وجدت نفسي أمام فرقة العدو متكوّنة من أربعة أشخاص تواجهني وسط زوابع رملية أعمى غبارها جفون عيني وأنا أوصد عيني وأفتح أخرى لأبصر بها؛ فأطلقت النار على الجندي الفرنسي فصرخ صرخة واحدة وانهار على البساط قبلا، وغدا الاشبك عبارة عن حجم مخوف بصغير طلقات الرصاص من كل الجهات، واحتدمت المعركة بين ضفتي الواد وأنا أفكر لأغادر المعركة بعد احتلال التوازن بين الطرفين لأنّحق بمدينة متبلي على مسافة 15 كيلومتر<sup>(18)</sup>.

اللافت للنظر في هذه الموقعة التي كانت فيها "متبلي" ساحة للقتال على ضوء شهادة المجاهد "دحمان رمضان" الذي روى قصتها في كتابات محفوظ قداش، أن صحراء الولاية السادسة أخذت نصيبها في مسيرة التحرير بإقليم الميزاب بغرداية، وأن الصمود أغنى من الاستسلام، والشهادة أغلى من الحياة وسط الإذلال والاحتلال.

أما الواقعة الثانية التي أوردتها المؤرخ محفوظ قداش في كتابه المذكور بشأن الثورة في الولاية السادسة فتعرف بعنوان "معركة الجنوب" (bataille dans le sud) في سنة 1956م، الصحراء حسب كتابات محفوظ قداش إقليم على وشك انتزاع حقّه في السيادة والتحرّر، ما دفع "رؤيت لاكوست" أن يفكر في إنشاء وزارة خاصة بالإقليم تحت إشراف الاشتراكي "ماكس لوجان"، ولكن استراتيجية الثورة كانت أقوى هذه السنة من سياسة لاكوست عندما قرّرت جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني نهاية السداسي الأول من سنة 1956م فتح جبهة عسكرية بالولاية السادسة، وعلى إثر ذلك أضحت الصحراء قاعدة خلفية للكفاح المسلح تحت مأمورية "العقيد لطفي"، وأصبح إقليم الجنوب في خدمة الثورة، يمتدّ من جبال عمّور ناحية آفلو إلى تندوف قرب الحدود الجزائرية المغربية، مارّا بالبيض وعين الصفراء وبيشار وتيسيمون<sup>(19)</sup>، وهكذا التحقت الصحراء بركب الكفاح كجبهة مناطق الوطن، وغدت ميدانا للعمليات الحربية من قبل جيش التحرير الوطني، ما يفسّر نجاح القيادة في إقحام الولاية السادسة في حضن الثورة، تنفيذًا لقرارات أرضية الصومام؛ فالعراك التي يشهدها قداش في هذا الظرف فيما بين 1956 و1957م دوّنها في كتابه المذكور بناء على شهادة المجاهد "عبد الحميد شيران"<sup>(20)</sup>.

عاشت هذه الفترة على امتداد النصف الثاني من سنة 1956م إلى حدود النصف الأول من سنة 1957م معارك دامية، وظلّت بلا شك مسرحا للمواجهة والقتال بين المجاهدين والغزاة الفرنسيين؛ فمعركة "قعدة الخناق عبد الرحمن" بأفلو تحت قيادة العقيد لطفي كانت معركة دامية على مدى أسبوع كامل من القتال، وكانت كلفتها أثقل وأخطر على المجاهدين، نقص السلاح وندرة المؤونة الغذائية أجبرت عناصر جيش التحرير على تناول الأعشاب والزواحف لاختراق خطورة الجوع وتداعياته<sup>(20)</sup>، إنّها معركة بشّار الخالدة التي تذكرنا بسجلّ المعارك التي عاشها جنوبنا الغربي أيام الثورة في جبل "مورغاد" بالبيض، وجبل "مزيير ودرمال" بعين الصفراء، وفي "حمدان"

وفي "الميزاب" و"عنتر" ومعركة "الفروج" في بشار التي هي محور حديثنا في توثيق ملحمة الثورة التحريرية<sup>(1)</sup>.

تعود أسباب معركة "الفروج" في بشار إلى إنفراس جبهة وجيش التحرير الوطني في الوجدان الشعبي، واستفادة جيش التحرير من الذخيرة والأسلحة التي غنمها المجندون الجزائريون الفارون من الجيش الاستعماري، وقيام العدو بعملية تمشيط واسعة في بشار وعين الصفراء. خصّصت فرنسا في معركة "الفروج" ترسانة تتكوّن من 22 ألف جندي و50 سيارة عسكرية متعددة النشاطات، لواء جوي يضمّ 20 طائرة من نوع "ب26" و"ت6" وطائرات "جانكر"، وعدد كبير من المروحيات، يضاف إلى ذلك كلّ قوات حلف الشمال الأطلسي<sup>(2)</sup>.

بدأت المعركة يوم 29 جوان 1957م على مدى يوم كامل من القتال، وشاركت في العمليات قبيلة "أولاد جوير" وعرش "دوي منيه"، وعناصر أخرى من جيش التحرير من أهل "الشعبانية" و"أولاد سيدي الشيخ" من القنّاصة وذوي الخبرة القتالية.

وصلت إلى المعركة إمدادات قادمة من "فيفيق" بالمغرب لتعزيز القوات الفرنسية المتواجدة في الميدان. كان القتال عنيفا والقصف الجوي شديدا من قبل طائرات "ب26"، وكانت الأودية والمنخفضات والشعاب هدفا للقصف بغية تمشيط المنطقة بالكامل، والسعي إلى تطهيرها من رجال جيش التحرير الوطني. وفي الساعة العاشرة صباحا استمر الطيران الفرنسي في إلقاء القنابل والغارات الخائفة انتقاما من بسالة جيش التحرير الوطني الذي كلّف قوات العدو خسائر معتبرة<sup>(3)</sup>. ويقول عبد الحميد شيران أن معركة "الفروج" كلّفنا أحد القنّاصة و12 جرحا في صف جيش التحرير الوطني<sup>(4)</sup>، انتهت المعركة التي برهن فيها الجزائريون أن الثورة شاملة والغاية واحدة، وأن ما أخذ بالقوة لا يستردّ إلا بالقوة، رسالة من مجاهدي الولاية السادسة على زئير معركتين تاريخيتين خالدين تعانت فيهما جغرافية الصحراء مع تاريخ الإنسان وعبقريّة جيش التحرير الوطني.

4- إسهامات محفوظ قداش في تأسيس المدرسة التاريخية الجزائرية: في يوم من أيام السنة وبالتحديد في 30 جويلية 2006 فقدت الجزائر قامة من قامات الفكر الوطني، إنه المؤرخ الكبير محفوظ قداش رائد الكتابة التاريخية باللغة الفرنسية؛ فالجهود التي بذلها المؤرخ في البحث التاريخي

والإنتاج الغزير الذي ورثناه بعد رحيله جعل من قداش الباحث والمؤرخ والمفكر أن يكون أحد المثقفين الجزائريين الكبار إلى جانب شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله ويحي بوعزيز ومولاي بلحميسي وجيلالي صاري من قافلة المؤسسين الأوائل للمدرسة التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال. تقوم للمدرسة التاريخية عند المؤرخ "محمّوظ قداش" على استنطاق الواقع الجزائري منذ غابر الزمان إلى حاضر المكان، بالمرور على كافة المراحل - بآمالها وآلامها - التي قطعها الجزائر. مدرسة مشبعة بالترعة العلمية والعاطفة الوطنية، تعيد للتاريخ الوطني مكانته وتخزّنه من الحصار والتزوير والاستهلاك الظرفي الضيق. وتبرز هذه التوجهات بجلاء لدى محفوظ قداش في إسهاماته المتواصلة وفي كتاباته التاريخية. وتستند المدرسة التاريخية عند قداش على المبادئ الآتية:

- استثمار مخزون الأرشيف الوطني والدولي وتسخيرها في كتابة التاريخ.
- التحلي بالحذر عند التعاطي مع المصادر الأجنبية خاصة منها الفرنسية.
- التحلي عن التزعة الشوفينية والماتية المفرطة.
- استغلال الذاكرة الجماعية في توحيد الأمة وصيانة هويتها<sup>(5)</sup>.

فإذا عدنا بروح الإيمان والتدقيق في مرجعيات قداش التاريخية سنكتشف بلا شكّ ميزة أخرى في كتاباته نلمسها في سلسلة مؤلفاته حول تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية في الجزئين الأول (1919-1939م) والجزء الثاني (1939-1951م)، وتتجلى هذه الميزة العلمية في الروح النقدية ذات البعد العلمي التاريخي. إننا وصفة للمدرسة التاريخية التي ينتمي إليها قداش المؤرخ. لقد انتقد بشدّة وبوضوحية السياسة الاستعمارية كاشفا خروفيها وحروفيها فيما يتعلق بظروف الجزائريين إبان فترة ما بين الحربين (1919-1939م). وخلال هذه المرحلة بين المؤرخ غيوب النظام الكولونيالي قائلا: "اعتبر القرار المشيخي للمؤرخ في 14 جويلية 1865م الجزائريين للمسلمين مجرد رعايا فرنسيين، مواطنين في درجة دنيا"<sup>(6)</sup>، ممّا يؤكد إصرار المستعمر على نزع حق المواطنة من العنصر المحلي، ثمّ يمضي قداش في تعريته للاستعمار، منتقدا قانون الأهالي، وغياب الحق في المساواة أمام القضاء والتوظيف، وفي دفع الضرائب، وحرية العبادة والحق في التعليم<sup>(7)</sup>.

كما اهتمّ قداش بحركة النضال المثلثة في الكفاح الاجتماعي؛ فتحدث في كتاباته عن نشاط الحركة الاحتجاجية العمالية، واعتبرها عنصرا في إحداث التغيير كقوة اجتماعية سلمية مطالبة

بالإصلاح، نافذة للاستعمار. كما أبرز دور الإضرابات التي قام بها العمال الجزائريون للدفاع عن حقوقهم إلى جانب العمال الأوربيين، وفي هذا الصدد يقول محفوظ قداش: "ولذلك بدأ الأهالي يشاركون في الإضرابات التي كان ينظمها الأوربيون"<sup>(26)</sup>، من هذا المنطلق يبدو أن المدرسة التاريخية عند قداش تقوم على عنصر أبرز، قلّ توظيفه عند أي القاسم سعد الله ألا وهو "المعامل الاجتماعي المطلق"، ما يفسّر عند المؤرخ دور القوى الاجتماعية في صياغة المشروع الوطني وصناعة الظاهرة التاريخية.

أثار محفوظ قداش أهمية الظاهرة الاجتماعية في الصيرورة التاريخية مركزاً على ثقلها في تنشيط أداء الأحزاب الوطنية خلال الفترة ما بين (1947-1950)؛ فالانحياز السياسي الوطني الذي له القدرة الكافية على تجنيد أكبر حجم من القوى الاجتماعية في صفه يكون في مقدوره تحقيق مشروعه الاجتماعي والسياسي. وتظهر إشارة للمؤرخ قوية حينما يتحدث عن الانحياز الاستقلالي الذي تمكّن من استقطاب تلك الطاقات الاجتماعية داخل قواعده، ما دام العنصر البشري عاملاً حيوياً في المسيرة النضالية التحررية، فيقول: "إن مصدر عظمة حركة انتصار الحريات الديمقراطية يعود في الأصل إلى استقطابه الواسع للشرائح الاجتماعية، إنه التيار الوطني الأقوى، الحاضن الأكبر للمجاهير الشعبية"<sup>(27)</sup>.

ولكن الالفت للنظر في كتابات المؤرخ أنه يريد أن تكون عناصر الهوية الوطنية حاضرة في وظيفة التاريخ، لأهمها ضرورتان في تأصيل المدرسة التاريخية الجزائرية عند محفوظ قداش. الذي يرى أن التعرف على تاريخ الشخصيات الوطنية وتوجّه نحو الدراسات المونوغرافية، كلّها عوامل تؤدي هذا الدور وتحقق هذا الغرض. إن كتابه<sup>(28)</sup> حول مدينة الجزائر خلال فترة ما بين الحربين وضعه تحت عنوان "الانتخابات في مدينة الجزائر فيما بين 1919 و1939، تعدّ عملاً مونوغرافياً في غاية الأهمية، كشف من خلاله عيّنة من السياسة الكولونيالية في الجزائر تحت وطأة الاحتلال. ويندرج هذا النموذج من دراسته في ما يعرف حالياً بالتاريخ الجزئي (micro-histoire) كروية علمية وتوجّه منهجي جديد ظهر في إيطاليا مطلع السبعينيات من القرن الماضي<sup>(1)</sup>. ونفسي الدراسة المونوغرافية في نظر قداش إلى اكتشاف عنصر الوطنية العميقة حيث يتمّ التركيز على الفرد أكثر من

الجماعة على أساس أن الإنسان هو الثابت والمتغيّر في صناعة الفرد والجماعة والمجتمع، والثورة الجزائرية هي محصّلة هذا التصوّر العلمي الدقيق.

أما عامل الهوية لدى المدرسة التاريخية في كتابات قداش، فإنّه يتناول فيها تاريخ الشخصيات الجزائرية التاريخية باعتبارها مصدر إلهام في ترسيخ مفهوم الوطنية ومبادئ الحرية ومكونات الهوية الجزائرية. وفي هذا السياق يعتبر كتاب محفوظ قداش حول الأمير خالد دلالة على اهتمام المؤرخ بتاريخ الشخصيات الجزائرية التاريخية المهمة للهوية والوطنية؛ فعنوان الكتاب تأكيد بليغ على هذا الانحياز. يقول محفوظ قداش: "أراد للجزائر أن تبتدأ مكانتها الدولية، انتقد النظام الاستعماري في المحافل الدولية، لذا يعدّ الأمير خالد رمزاً للمقاومة الجزائرية"<sup>(29)</sup>، إن عملية ترسيخ القيم الوطنية وتعميقها في الذاكرة الجماعية والوجدان الشعبي تنطلق حسب محفوظ قداش من دراستنا وفهمنّا وتقديرنا ل هؤلاء الرجال الذين حملوا بدمائهم وأقلامهم وأصواتهم الوطن في الأيام الخالكات.

ويبقى محفوظ قداش في هذا التوجّه مع المؤرخ الكبير "محمد الشريف ساحلي" الذي أبحرته قيم ومبادئ الدولة الجزائرية الحديثة على عهد مؤسسها الأمير عبد القادر بن محي الدين<sup>(30)</sup>؛ فالمرؤخان يتقاسمان نفس الانشغال ويتقاطعان حول موضوع واحد، ألا وهو استلهام عناصر الهوية الوطنية واقتنائها من إرثنا الوطني التاريخي.

خاتمة: من عظام ثورة نوفمبر أمّا استطاعت أن تعبد لنفسها طريق النصر مند بداية اندلاعها بلليل أن نداء أول نوفمبر 1954م كان بالفعل ميثاقاً للكفاح الوطني المسلّح، بل إنه الفكر التحرري للثورة الجزائرية بشقيّ الفلسفي والإستراتيجي معا. يضاف إلى هذه العظمة الذاكرة الجماعية لثورة نوفمبر الخالدة، التي ما فتئ رجالها - أولئك الذين صنعوا بالأمس أحداثها - إلى اليوم يستحضرون محطاتها المشرفة للجيل الحاضر أمانة للتاريخ. إنّ الشهادات الحيّة أمر ضروري في تدوين ملحمة الثورة بأجسادها وبطولاتها بكل صدق وأمانة؛ فالعمل الذي أنجزه المؤرخ الكبير محفوظ قداش في كتابه "حكايات من جمر" (récits de feu) يخدم الذاكرة الجماعية، ويصوغها من ذهنيات التأويل والتزييم والتعويض، لذلك فالنصريحات والشهادات التي نقلها محفوظ قداش من جيل الكفاح ودونها بأسلوبه العلمي في كتابه المذكور، يكون قد حقّق بعمله هذا وظيفة ربط التاريخ الشعبي بنظيره الأكاديمي فيما يتعلق بواقع الثورة التحريرية بالولاية السادسة (الصحراء).

بعد دراستنا لتاريخ حرب التحرير بالإقليم الصحراوي، ومن خلال كتابات قداش استطعنا أن نتوصل إلى العديد من الحقائق العلمية والتاريخية والمواقف الذاتية للكاتب بإمكاننا أن نحصرها على النحو الآتي:

- لم تكن الصحراء أيام الثورة معزولة عن مجريات الكفاح الوطني المسلح؛ فالشهادات التي وثقها المؤرخ في مؤلفه أسقطت زيف المستعمر وأبطلت مزاعمه المضللة، وقد تعاضد دور جنوبنا الكبير بشكل خاص في النشاط العسكري الوطني بعد أن فتحت الثورة الجزائرية جبهتها الحربية الجديدة بقرار من مؤتمر الصومام سنة 1956م ألا وهي الولاية السادسة.

- مع الاندماج النعالي للولاية السادسة في معارك حرب التحرير سنة 1956م، تكون استراتيجية الثورة قد أخرجت عملا كبيرا في مسارها نحو طريق النصر، بمعنى أن شمولية الكفاح المسلح قد رأت النور عندما التحم التل بالصحراء والشمال بالجنوب، ونتيجة لذلك بدأ سياسة المستعمر منذ أواخر سنة 1956م، يفكر في إخضاع الصحراء لوزارة الحرب تحت قيادة الاشتراكي "ماكس لوجان" (Max Lejeune).

- إن المعارك والمواجهات التي قادها جيش التحرير الوطني في أعماق الصحراء في أفلو والأغواط ومطيلي وبشار والشعانة فيما بين 1956 و 1957م شكلت في حد ذاتها عمليات رائدة في القتال وفي الصمود وفي التخطيط العسكري، بإتقان سطح الجنوب وتضاريسه في المسيرة التحررية الجزائرية، بحيث استغل المجاهدون الوديان والشعاب والجبال والواحات والكثبان في مهاجمة العدو وإبطال عملياته الجهنمية.

- يتعين على المرء على ضوء كتابات محفوظ قداش فيما يخص كتابه المذكور، أن للمؤرخ يمثل إحدى الأقلام الوطنية الرائدة في تأريخ الحركة الوطنية والثورة الجزائرية. ومن زاوية أخرى يعكس قداش أحد أقطاب المدرسة التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال التي حررت الكتابة التاريخية من هيمنة المدرسة الاستعمارية عليها؛ فالمدرسة التي ينتمي إليها الكاتب تستمد توجهاتها من العمق الوطني، شأنه في ذلك شأن أبي القاسم سعد الله، غير أن الرجلين يختلفان في التوجهات، حيث فكر محفوظ قداش ميال إلى الموروث الاجتماعي العمالي المتعاطف مع التيار اليساري بينما سعد الله ينطلق من أصوله الفكرية الناهلة للثقافة العربية الإسلامية.

- إن تناول المؤرخ لموضوع الثورة في الولاية السادسة يبرز النظرة الجامعة للمدعمة بالشهادات الحية، وقد يفتح المجال أمام الدراسات الجغرافية التي نحن في أمس الحاجة إليها، وسيفضي هذا الاهتمام إلى تأسيس ما يعرف اليوم بالتاريخ الجزئي أو "الميكرو تاريخ" الذي نشأت حركته بإيطاليا في مطلع السبعينيات من القرن الماضي.

اليوماني:

- (1) Mahfoud Kaddache, récits de feu, société nationale d'éditions et de diffusion, Alger, 1977, p194.
- (2) إسماعيل العربي، الصحراء لكبرى وشباطها، مؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 15. --- (3) إسماعيل العربي، المرجع نفسه، ص 17. --- (4) إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 64.
- (5) André Jourdan, les confréries islamiques en Algérie, Alger, 1910, p 41.
- (6) André Jourdan, Ibid, p 41.
- (7) إبراهيم ميسي، "التمتع الفرنسي في الجنوب الشرقي للوطن"، مجلة أول نوفمبر، العدد 165، 2001، ص 13-16.
- (8) إبراهيم ميسي، المرجع نفسه، ص 15. --- (9) عبد القادر حلوش، "حركة التحرير في الجزائر عهد الاحتلال"، مجلة لوزية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، العدد الأول، 1996، ص 118-129.
- (10) Lieutenant Guillo Lohan, campagne de reconnaissance au sahara (1900 -1903), archives de France, fonds série D17.
- (11) Jean-Claude Vatin, l'Algérie politique histoire et société, éd. el Maarifa, Alger, 2010, p269.
- (12) Patrick Evéno, Jean Planchais, la guerre d'Algérie, Ed. Laphomic, Alger 1990, p 69.
- (\*) لم يرد أي أثر أو دليل في مؤلف محفوظ قداش عن الإطار الزمني الخاص بتاريخ حيلوث المعركة.
- (13) Mahfoud Kaddache, récits de feu, op.cit., pp194-195. --- (14) Ibid, p 194. --- (15) Ibid, p195.
- (\*) أصوات ثوبه مثقلة من قبل قائد لعملية "سي" بوجعة، اهدف منها تفصيل قوات العدو وإزلاك قيادته.
- (16) Kaddache, op.cit., p196. --- (17) Ibid, p201. --- (18) Ibid, pp201-202. --- (19) Ibid, p146.
- (\*) شارك عبد الحميد شيران بنفسه في معركة الجوب يوم 29 جوان 1957، استند إليه المؤرخ في توثيق أحداث الثورة بالولاية السادسة.
- (20) Kaddache, Ibid, p 146.
- (\*) شهادة المجاهد عبد الحميد شيران، وثقها محفوظ قداش في كتابه المذكور في الصفحة 147.
- (21) Ibid, p 147.
- (22) لم نشر شهادة المجلد "عبد الحميد شيران" إلى أي رقم فيما يخص حساب العدو واكتفى بالتعميم فقط. انظر محفوظ قداش، المرجع نفسه، ص 150-152.
- (23) Kaddache, op.cit., p 152.
- (\*) ينظر إلى مؤلفات محفوظ قداش حول "تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية"، الجزء الأول والثاني.
- (24) Mahfoud Kaddache, histoire du nationalisme algérien, 1919 - 1939, t.1, E.n.a.d Alger, 1993, p 29. (Voir : histoire du nationalisme algérien, t.1, 1919 - 1939, et t.2, 1939 - 1951).
- (25) Ibid, pp 30 - 38. --- (26) Ibid, pp 27 - 28.
- (27) Mahfoud Kaddache, histoire du nationalisme algérien, question nationale et politique algérienne 1919 - 1951, t.2, société nationale d'édition et de diffusion Alger, 1980, p 799.
- (28) Mahfoud Kaddache, les élections municipales à Alger, s.n.e.d, Alger, 1977, p 121.
- (\*) انظر كتاب: التاريخ الجزئي، للمؤلف لويس باب (Loïc Le Pape)، منشورات أبريل، 2012.
- (29) Mahfoud Kaddache, l'Emir Khaled, documents et témoignages pour servir à l'étude du nationalisme algérien, o.p.u, Alger, 2009, pp 214 - 215.
- (30) Mohamed Chérif Sahli, Abdellkader chevalier de la foi, imprimerie Moriamé, Paris, 1967, pp 84 - 102.

**Abstract:** *It seems that the history of the glorious revolution, will not stop after his writing against the importance of the testimonies that show all the time .These certificates that will open up new spaces in front of specialists and researchers in the history of the armed struggle field. In the context comes the book Algerian historian "Mahfoud Kaddache" entitled "Tales of coals", and which it is a source of reference and a reference liberation revolution in the desert region.*

*So Kaddache shed light on the gutter area to the edges of Mزاب region, Laghouat, and El-Bayed, is embraced by those bodies of military events and fighting between the national liberation army, and the French row enemy forces.*

*And so, we had to offer this to the arab author to show the universality of the revolution between 1956 and 1957 in our deep south, and sixth state in particular which will add a qualitative leap in the history of the Sahara rebelling.*